صفحات ونفحات

من الاحاديث الروحية النبوية

بقلم

الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

وقفت بك فى المقالات الثلاث السابقة من هذه الصفحات والنفحات عند أطراف من أولى تلك الصفحات ، وهى صفحة الحياة الروحية المحمدية ، وبينت لك من خلال تلك المقالات الى أى حد وعلى أى وجه كانت الحيـــاة الروحية المحمدية بما تألفت منه من عناصر نفسية وخلقية ، وبما خضعت له من قواعد السلوك ومبادىء العمل ، وما فاضت به من اشراقات قلبية ونفحات روحية ، منبعا لما عرف بعد ذلك باسم التصوف الاسلامى ، ولما دعا اليه الصوفية من أخذ النفس بالرياضيات والمجاهدات ، وما تحققـــوا به من الأذواق والمشاهدات . وقد يرى البعض أن فى رد التصوف وأصوله العملية والروحية الى مصدره فى الحياة الروحية المحمدية على هذا الوجه ، شيئا من الاسراف أو المبالغة ، مما يجعل من نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام صوفيا عاكفا على نفسه ، وزاهدا معتكفا عن النـــاس ، والواقع أنه لم يكن كذلك ، وانما هو على العكس من ذلك أقبل ما يكون على الحياة العامة ، وأفعل ما يكون فيها ، تدبيرا لشئون المعاش ، وتبصيرا بشئون المعاد ، واقامـــة للحياة الانسانية على دعائم قوية من العلم الحق والعمل الصالح ، بحيث تتحقق للمسلمين السعادة فى حياتهم الدنيا ، وحسن العقبى فى حياتهم الأخرى .

ولكى يتبين وجه الحق واضحا جليا بحيث يتبين معه أن لا اسراف ولا مبالغة ، فقد رأيت أن أقف معك فى هذا المقال عند بعض الصفحات والنفحات المستمدة من الاحاديث الروحية النبوية التى هى أدل الدلائل وأصدقها على أن الحياة الروحية المحمدية قد اشتملت مذ طلع على العالمين فجرها ، وملأ أرجاء الكون نورها ، على وسائل التأديب والتهذيب ، وقواعد الترغيب والترهيب ، وأدوات التصفية والتنقيه ، وآلات التخلية والتحلية ، وما الى هذا كله من سائر آداب السالكين ، وأذواق العارفين ، ومواجيد الواجدين ، كما رأيت أن أؤيد هذه الأحاديث الروحية النبوية بما يناسبها من الآيات

القرآنية الكريمة التى ان دلت على شىء فانما تدل على أن كتاب الله وما يؤيده من سنة رسوله هما أصدق المراجع ، وأصفى المنابع ، التى ينبغى أن يستقى منها ويرد اليها كل ما حققه نبى الاسلام فى حياته الروحية ، وما حققه معه الصحابة ، وما حققه من بعدهم التابعون ، ومن جاء بعد أولئك وهؤلاء من الزهاد والعباد والصوفية ، من مثل عليا تحققوا فيها بكمال العلم وكمال العمل ، وكانت سبيلهم جميعا الى الظفر بالسعادة القصوى ، والبهجة العظمى .

والصوفية فيما أقاموا من أسس العلم وقواعد العمل ، قد اتفقوا على أنه لا بد لمن أراد سلوك طريقهم من أن تختلف نفسه على مقامات ، وأن تختلف على نفسه أحوال ، وأن يظل على هذه الحال ، من تعاقب المقامات والأحوال ، حتى يصل فى النهاية الى المقام الأسمى وهو مقام التوحيد والعرفان ، والى الحال الأسنى وهو حال البقاء بعد الفناء ، ومن هنا كان أخص ما تتسم به علوم الصوفية أنها علوم أحوال ، وأن هذه الأحوال انما هى عندهم مواهب يمنحها الله ويوردها على قلوب عباده الصالحين ، كما أن المقامات مكاسب من جانب العبد ، وثمرات لما يبذله من جهد ، ومن هنا أيضا كانت المقامات قواما للحياة الخلقية العملية ، كما كانت الأحوال قواما للحياة النفسية الذوقية .

على أن الصوفية ، وان كانوا متفقين على هذا ، الا أنهم قد اختلفوا فى عدة المقامات والأحوال ، وفى أن ما يعده بعضهم من المقامات قد يعده بعضهم الآخر من الأحوال : فالطوسى فى كتابه « **اللمع فى التصوف** » ، قد جعل المقامات سبعة ، وجعل كلا منها ثمرة للمقام الذى يتقدمه ، فهى عنده عبارة عن التوبة فالورع فالزهد فالفقر فالصبر فالتوكل فالرضا . وأبو طالب المكى فى كتابه (**قوت القلوب**) قد جعل المقامات تسعة هى عنده التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة . والسهروردى البغدادى فى كتابه (**عوارف المعارف**) قد جعل من الايمان والتوبة والزهد ودوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا ، أمورا أربعة يجب أن يتحقق بها أولا كل من سلك طريق الله عز وجل على الوجه الأكمل ، ورأى أن تمام التحقق بهذه الأربعة انما يستعان عليه بأربعة أخرى هى : قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام ، والاعتزال عن الناس ، وأن من ظفر بهذا كله فقد استقامت له الأحوال ، وصحت له المقامات . على أن التوبة والزهد وهما ها هنا مما يعده السهروردى من أوليات السلوك فى طريق الصوفية ، قد عدهما بعد ذلك من بين المقامات التى هى عنده عشرة ترتب على الوجه التالى : التوبة والورع والزهد والصبر والفقر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا . ومهما يكن من شىء فان الذى لا شك فيه ، ولا

خلاف عليه ، هو أن التوبة عند من ذكرنا من المؤلفين الصوفيين وعند غيرهم هى أول المقامات وأصلها ، بمعنى أن من لا توبة له فلا مقام ولا حال له ، وأن التوبة اذا صحت فقد آشتملت على مقامات وأحوال هى سبيل العبد الى تصفية قلبه ، وقربه من ربه ٠

والذى يعنينا من هذا كله هو أن نلاحظ أن المقامات التى يصنفها ويرتبها ويفيض فى تحليلها وتفصيلها من الناحيتين النفسية والخلقية ، المؤلفون الصوفيون فيما خلفوا من مصنفات ، والتى أخذ الصوفية المتحققون أنفسهم وأنفس مريديهم بها فيما عكفوا عليه من مجاهدا ت، ليست فى حقيقتها الا صورا متعاقبة ، وتعبيرات متجددة ، وتفسيرات متنوعة ، لما اشتملت عليه الأحاديث النبوية الشريفة ، والآيات القرآنية الكريمة ، من المعانى الروحية السامية التى انطوت عليها ، ودعت اليها ، هذه الآيات وتلك الأحاديث : فاذا وقفنا عند التوبة مثلا ، ألفينا طائفة صالحة من الآيات والأحاديث هى أحفل ما تكون بها ، وأدعى ما تكون اليها ٠ وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام قوله صلى الله عليه وسلم : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » ، وقوله : « يا أيهـــا الناس توبوا الى الله واستغفروه ، فانى أتوب فى اليوم مائة مرة » ، وقوله : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » ٠ وحسبنا أيضا أن نؤيد ما ورد فى هذا المقام على لسان رسول الله بما ورد فى كتاب الله من قوله عز وجل : **(وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)** ، وقوله : « **استغفروا ربكم ثم توبوا اليه** » ، وقوله : « **يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا** » ٠

واذا تركنا التوبة الى الزهد وجدنا فيه أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : « أزهد فى الدنيا يحبك الله ، وأزهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » ، وقوله : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين ، وزهده فى الدنيا ، وبصره بعيوبه » ، وقوله : « اذا رأيتم من يزهد فى الدنيا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة » ٠ وليس أدل على استصغار قيمة الحياة الدنيا ، واحتقار شأنها ، ولا أعون على الزهد فيها ، والانصراف عن متاعها وغرورها، والاقبال على ما هو خير منها وأبقى ، من قوله تعالى : « انمـا مثل الحيـــاة **الدنيا كماء أنزلناه من السما فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** » ، وقوله : « **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبـات الأرض فأصبح هشيما**

تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا » ، وقوله : « **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »** .

وكذلك الصبر والشكر والتوكل والرضا وغيرها مما جعل منه الصوفية منازل لهم فى طريقهم الى الله ، نجد لكل منها مصدرا نبويا ومؤيدا قرآنيا ووجها أو أكثر من وجه فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى حياة أصحابه رضى الله عنهم ، من شأنه أن يجعله خليقا بأن يكون مقاما من المقامات التى تستوعب نفوس الصوفية حتى تصفو وتسمو ، وتصبح أهلا لأن تتخلق جوارحها بأرقى الأخلاق ، وتتذوق بواطنها أنقى أنوار الاشراق .

ففى الصبر نجد من الأحاديث النبوية الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم : « .. الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك .. » وقوله : « .. من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله » ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » ، وقوله : « عجبا لأمر المؤمن ! ان أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » . ونجد من الآيات القرآنية الكريمة قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا »** ، وقوله : « **وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا »** ، وقوله : « **انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »** ، وقوله : « **ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور »** .

وفى الشكر نجد ما روى عن عائشة رضى الله عنها من أنها قالت : « ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ! ، ونجد قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلنى شكورا ، واجعلنى صبورا ، واجعلنى فى عينى صغيرا ، وفى أعين الناس كبيرا » . ونجد من آيات القرآن الكريم قوله تعالى : « **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد »** ، وقوله : « **فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »** ، وقوله : « **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين»** وقوله : « **ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين »** .

وفى التوكل نجد قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت » . ونجد قوله تعالى: « **وتوكل على الحى الذى لا يموت** » ، وقوله : « **فاذا عزمت فتوكل على الله** »، وقوله : « **ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » .

فاذا أضفنا الى كل ما تقدم من آياتوأحاديث ، ما خاطب به اللهعز وجل رسوله فى قوله : « **يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا ، نصفه أو أنقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ، ان لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا** » ، وأضفنا اليه ما عرفناه من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وحياته الروحية التى وقفنا عند بعض صفحاتهـــا ونفحاتها ، من أنه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه وأنه كان يعكف فى بعض أيامه ولياليه على نفسه ويعتكف عن الناس الى الله ، ولاءمنا بين هذا كله وبين ما أخذ به الزهاد والعباد والصوفية المسلمون أنفسهم من طرق فى الرياضة والمجاهدة ، ووازنا بين حياة هؤلاء الزهاد والعباد الصوفة بين حياة النبى صلى الله عليه سلم فى ظل النفحات الاشراقات التىتنبثق من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، أقول اذا فعلنا هذا كله ، وجردنا أنفسنا وقلوبنا وعقولنا من شوائب الهوى والغرض ، ونوازع التعصب والتعسف ، انتهينا الى الصفحة الأولى من كتاب الحياة الروحية الاسلامية انما هى صفحة الحياة الروحية المحمدية ، وأن النفحة الالهية الأولى التى فاضت منها النفحات الروحية الأخرى فى تاريخ الاسلام ، انما هى هـــذه النفحة النبوية المستمدة من تلك الصفحة التى خطت سطورها النورانيـــة الأولى يد محمد عليه الصلاة والسلام .

محمد مصطفى حلمى

* * *